الدالُّ والمدلول

الدال والمدلول مصطلحان قديمان يشكلان ثنائية مترابطة تنسب إلى العالم اللغوي الشهير (دوسوسير)، ولا يمكن الفصل بين المصطلحين لأنهما كوجهي ورقة.

والجامع بين الدالّ والمدلول الدليلُ اللسانيّ. الذي هو الكلمة سواء كانت اسما أو فعلا أو صفة أو أداة. و سمّي دليلاً لسانيًّا لتمييزه عن بقيّة الدلائل الأخرى في حياتنا المتنوعة، إذ الإشارة في نظام الطرقات دليل، والرمز أيّ رمز دليل، والأيقونة دليل، والدخان دليل، والسحاب دليل. وكلّ هذه الدلائل هي دلائل سيميولجيّة في مقابل الدلائل اللسانيّة التي تنتمي إلى اللغات البشريّة. وبطبيعة الحال يختلف تحليل الدليل باختلاف طبيعته، ومجال الدليل اللسانيّ هو اللسانيّات لأنّه يعود إليها ومتعلّق بها. والدلائل الأخرى ترجع إلى علم العلامات. والمشترك بينها كلّها أنّها دالّة.

والدالّ في اللسانيّات هو الصورة اللفظيّة لأيّ كلمة، أي الصورة المنطوقة أو المكتوبة للدليل اللسانيّ. وهو بعبارة (دوسوسير): البصمة الصوتيّة، باعتبار أنّ الأصل في الكلام أن يكون منطوقاً. والدالّ يتكوّن في الغالب من مجموعة من الأصوات أو الفونيمات أي الوحدات الصوتيّة الدنيا، سواء كانت صوامت أو صوائت. والوحدة الصوتيّة الدنيا لا معنى لها أو هي خالية من المعنى، ولكن في ائتلافها مع وحدات صوتيّة أخرى، تكتسب الكلمة دلالتها، ما يجعل هذه الوحدة الصوتيّة وحدة مميّزة، وتمييزها يظهر باستبدالها مع وحدات صوتيّة أخرى.

وأمّا المدلول فهو المضمون أو بالأحرى المتصوّر المجرّد المفترض للدليل اللسانيّ. وهو صورة عقليّة نجدها في الذهن، وتوضع إزاء دالّ معيّن. ولو أخذنا على سبيل المثال دليلاً لسانياً من نحو" قلم"، فما أن ننطق بهذا اللفظ أو نسمعه حتّى تحصل في الذهن صورة مفترضة للقلم، بغضّ النظر عن نوعه وشكله ولونه أو قيمته. وفي المقابل وبالنسبة إلى المتكلّم ما أن يفكّر في استعمال كلمة "قلم" حتى يجري على لسانه طبيعيًّا. ولو غيّرنا من باب الافتراض أحد حروف هذا الدليل، من نحو أن نقول عوض" قلم" :"علم" مثلاً، بتغيير القاف عينا، أو" قسم "بتغيير اللام سيناً، فسوف تتغيّر الصورة الراسخة في الذهن، ونتحوّل من مجال دلاليّ إلى آخر.

والعلاقة بين الدالّ والمدلول علاقة اعتباطيّة أي غير وضعيّة ولا منطقيّة، وإلّا فما العلاقة بين أصوات القاف واللام والميم فضلاً عن الصوائت ومفهوم القلم؟ والدليل على هذه الاعتباطيّة تسمية القلم قلماً في العربيّة، وتسميته بأسماء أخرى مختلفة تماما في لغات أخرى. ولو لم تكن العلاقة اعتباطيّة لكان كلّ مدلول له دال واحد في كلّ اللغات، وهذا مستحيل.

ومثال آخر، فلفظ (عصفور) هو الدال عند (دوسوسير)، والمدلول هو الصورة الذهنية التي تتشكل في الذهن إثر سماع الصوت، فعند سماعك كلمة عصفور يتشكل في ذهنك صورة لمخلوقٍ صغيرٍ طائر.

باجتماع الدال والمدلول تتشكل لدينا اللغة التي في حقيقتها -حسب تعبير (دوسوسير)، فهي أداة رمزية للتواصل، إذ يعتبر (دوسوسير) اللغة رموزًا صوتيةً تُشكّل الصورة الذهنية وشأنها كغيرها من الرموز؛ كالإشارة الضوئية واللافتات وغيرها، فكل كلمة تكون رمزًا تتشكل من الدال (اللفظ) والمدلول (الصورة الذهنية)، فالدال هو الشكل والمدلول هو المعنى، ولا يُمكن وجود الشكل إلّا بوجود معنى له.

وفي كلمة عصفور لا يُمكن أن يعني حرف العين الرأس والصاد الجناح والفاء الصدر والواو الأرجل والراء الذيل، فالعلاقة ليست واضحةً وإنّما حكمها العرف، فالطفل ينشأ في بيئة تطلق على هذا الطائر هذا اللفظ ويلتقطه ليكون رمزه في التعبير عنه.

ومن خلال هذه الثنائية تكون اللغة أداةً رمزيةً للتواصل، تُشكلها رموز هي الكلمات وبارتباطها مع بعضها تشكل المعنى العام المراد للتواصل، والاختلاف بين هذه الرموز يُشكل المعنى.

ومع اهتمام (دوسوسير) بالدال والمدلول فقد أهمل الدلالة. ثم جاء بعده الدلاليون ليهتموا بها، وكان لكتاب (محاضرات في اللسانيات العامة)، والذي ألّفه عالم اللغويات فرديان (دوسوسير)، صداه الكبير على البحث اللغوي، حيث كان فاتحة الدراسات اللغوية الحديثة أو ما يُعرف باللسانيات، وقد عمد (دوسوسير) إلى تقسيمات ثنائية لمصطلحات اللغة والبحث اللغوي، وكان من بين هذه الثنائيات ثنائية الدال والمدلول .

د. الشريف مرزوق